

عصر الدول والإمارات الأندلس

د. عاطف العراقي

لا أكون مبالغاً إذا قلت: إن المهتمين بأدبنا العربي من قريب أو من بعيد، يدركون تمام الإدراك الجهد الكبير الذي يقوم به الأستاذ الدكتور شوقي ضيف في مجال الفكر والثقافة عامة، والأدب العربي على وجه الخصوص. ومن الميادين التي يهتم بها كتابة موسوعة يؤرخ فيها للأدب العربي قديمه وحديثه.

والكتاب الذي نعرض له الآن، كتاب عصر الدول والإمارات يعد حلقة من حلقات السلسلة التي يؤرخ فيها لتاريخ أدبنا العربي. وقد صدر هذا الجزء الخاص بالأندلس منذ شهور قليلة، وفرح به القراء في كل أرجاء عالمنا العربي من مشرقه إلى مغربه، لأهمية موضوعه من جهة، ولأن مؤلفه هو الرائد الكبير الدكتور شوقي ضيف، وهو من هو في دقة بحوثه وعمق ثقافته وأصالته الأكاديمية التي لا حدود لها، وحسه النقدي الممتاز وقدمه الراسخة في مجال الدراسات الأدبية والفكرية.

ومؤلفات الدكتور شوقي ضيف، قد تعجز عن القيام بتأليفها مدرسة كاملة من الباحثين والدارسين، لقد قدم مجموعة من الكتب الرائدة في الدراسات القرآنية، وفي تاريخ الأدب العربي كالعصر الجاهلي، والعصر الإسلامي والعصر العباسي الأول والعصر العباسي الثاني، وثلاثة مجلدات في عصر الدول والإمارات، المجلد الأول عن الجزيرة العربية والعراق وإيران، والمجلد الثاني عن مصر والشام والمجلد الثالث عن الأندلس، وهو المجلد الذي يعد موضوع دراستنا الآن؛ وكل مجلد من هذه المجلدات زادت صفحاته عن نصف ألف، بل إن المجلد الثاني عن مصر والشام اقتربت صفحاته من الألف صفحة.

والدكتور شوقي ضيف لا يكل ولا يميل، لقد قدم لنا عشرات الكتب في مكتبة الدراسات الأدبية كالفن ومذاهبه في الشعر العربي، والفن ومذاهبه في النثر العربي، والأدب العربي المعاصر في مصر، والبارودي، وشوقي، بالإضافة إلى العديد من الدراسات النقدية والدراسات البلاغية واللغوية، وفنون الأدب العربي كالرثاء والمقامة والنقد والترجمة الشخصية والرحلات.

وانطلاقاً من إيمان رائدنا الدكتور شوقي ضيف بأهمية التراث الذي قدمه أجدادنا، لم يكن مكتفياً بالتأليف، بل أضاف إلى التأليف، الاهتمام بمجال التحقيق، وهل يمكن أن ننسى مجهوداته في تحقيق كتاب المغرب في حلى المغرب لابن سعيد، وكتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد، وكتاب الرد على النحاة، وكتاب الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر إلى آخر الكتب الرائعة في مجال التأليف ومجال التحقيق، ألم أقل لكم أيها السادة القراء أن أستاذنا الدكتور شوقي ضيف يعد مدرسة متكاملة وموسوعة أدبية حية.

والكتاب الذي بين أيدينا اليوم، كتاب عصر الدول والإمارات (الأندلس) يعد المجلد السابع في سلسلة تاريخ الأدب العربي، إذ سبقه مجموعة من المجلدات عن بلدان شتى، وعصور كثيرة، وذلك على النحو الذي أشرنا إليه منذ قليل، إنه يعد دراسة أكاديمية ذات مستوى رفيع، ويكفى أن يطالع القارئ صفحات الكتاب، وسيدرك تمام الإدراك مبلغ الجهد الذي بذله الدكتور شوقي ضيف، واعتماده على المصادر الرئيسية الدقيقة.

ولقد كنت حريصاً على قراءة الكتاب قراءة واعية منذ تسلمى له من الدكتور شوقي ضيف، لأنني أعلم من خلال متابعتي لأعماله، أن هذا الأستاذ الرائد قد دخل تاريخنا الأدبي المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها، وكما كنا ومازلنا نتحدث عن علمنا الجليل الدكتور شوقي ضيف أثناء العديد من اللقاءات الخاصة برابطة الأدب الحديث.

ولا أخفى على القراء أنني كلما كنت انتهي من قراءة فصل من فصول الكتاب، وأشرع في قراءة الفصل الذي يليه، أقول لنفسي إن هذه الدراسة الرائدة، لعصر الدول والإمارات تعد بحراً على بحر، تعد عميقة غاية العمق، وسامية غاية السمو والرفعة، كنت أقول باستمرار: إلى الجحيم يا أشباه الأساتذة وأشباه الأدباء، والذين تحسبهم أدباء وماهم بأدباء، تحسبهم يدخلون في إطار الأدب، والأدب منهم براء، ليتنا نتعلم من الدكتور شوقي ضيف كيف يكتب، ليتنا ندرك مجهوداته العظيمة والرائدة والتي يقوم بها في صمت وتواضع بعيداً عن بريق الشهرة والطبل الأجوف، إن أديبنا في دراسته عن الأندلس يعد كالجيل الراسخ البناني، كالهرم في سموحه وعظمته.

ويتضمن كتاب عصر الدول والإمارات (الأندلس) مقدمة وخمسة فصول.

يقول المؤلف في الصفحات الأولى من كتابه: إن هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بالأندلس في عصر الدول والإمارات... وهذه الدراسة المستفيضة لتاريخ الأدب العربي في الأندلس أثناء ثمانية قرون طوال، جعلتني أرجع إلى كل ما استطعت الاطلاع عليه من المصادر والمراجع الأندلسية المتصلة بكتب التاريخ والتراجم، وكتب علوم الأوائل، والعلوم اللغوية والدينية وكتب الشعر ودواوينه، وكتب النثر وأعمال كتابه، كما رجعت إلى طائفة من كتب

المستشرقين والباحثين محاولاً بقدر ما أستطيع أن أرسم هذه الصورة المستوعبة لأدب الأندلس، مع تصحيح الأحكام المخطئة التي من شأنها الغُص من مكانته الرقيعة ومن المدى الخطير الذي أثر به في الأدب الأسباني والآداب الأوربية (ص ١٢).

هذا ما يقوله المؤلف في السطور الأخيرة من مقدمة كتابه. والواقع أننا نجد أنفسنا أمام موسوعة، تفتح العديد من الآفاق أمام كل الدارسين مستقبلاً. موسوعة تثير العديد من القضايا والمشكلات التي أثرت في الماضي ومازالت تشار حتى الآن، موسوعة زادت صفحاتها - كما قلت - عن نصف ألف من الصفحات، والصفحة الواحدة تعد ثمرة اطلاع غزير، وتحليل فذ، وتأمل طويل من جانب الدكتور شوقي ضيف.

أما الفصول التي تضمنها الكتاب فهي على النحو التالي:

الفصل الأول: السياسة والمجتمع.

الفصل الثاني: الثقافة.

الفصل الثالث: نشاط الشعر والشعراء.

الفصل الرابع: طوائف من الشعراء.

الفصل الخامس: النثر وكتابه.

ونود أن نقف وقفة تحليلية عند كل فصل من الفصول، وقفة لا يمكن أن توفى الكتاب حقه في البحث والدراسة وخاصة في حدود النطاق المرسوم للمقالة.

خصص المؤلف الفصل الأول - كما قلنا - للحديث عن السياسة والمجتمع، وقد نجح المؤلف في تصوير الحياة الفكرية في مجال ارتباطها بالسياسة والمجتمع، وذلك من خلال دراسة التكوين الجغرافي والبشري، والحديث عن الدولة الأموية وأمراء الطوائف من مرابطين وموحدين، والحضارة والغناء والمرأة، وأيضاً الزهد والتصوف.

وأستطيع القول بأن هذا الفصل الأول يعد من الفصول الهامة والضرورية في الكتاب؛ إن هذا الفصل لا غنى عنه للحديث بعد ذلك عن الشعر والثقافة والنثر، وذلك على النحو الذي نجده في كتاب عصر الدول والإمارات (من الفصل الثاني حتى الفصل الخامس والأخير).

إن هذا الفصل يكشف عن عمق المؤلف وراثته الفكرية وغزارة اطلاعه؛ وعلى الرغم من اهتمامي بأكثر ما كتب عن الأندلس أثناء دراستي لفكر فلاسفة الأندلس، كابن طفيل وابن رشد ومنذ أكثر من ربع قرن من الزمان، إلا أنني وجدت في هذا الفصل الأول من فصول كتاب عصر الدول والإمارات (الأندلس) مجالات جديدة وآفاقاً مبتكرة لم أكن أعرفها قبل قراءتي لكتاب رائدنا الدكتور شوقي ضيف؛ لقد رجع مؤلفنا الفاضل إلى حشد هائل من المصادر

والمراجع وقدم لنا رؤية أكاديمية دقيقة وتحليلًا رائعًا لكل مجال من المجالات، التي تدخل في إطار هذا الفصل بأقسامه الستة، والتي يعد كل قسم منها مرتبطًا بالقسم الذي يسبقه، ومؤديا إلى القسم الذي يليه مما يكشف عن وحدة عضوية دقيقة، إن أقسام هذا الفصل على النحو التالي:

- ١ - التكوين الجغرافي والبشرى.
- ٢ - الفتح ثم عصر الولاة.
- ٣ - الدولة الأموية.
- ٤ - أمراء الطوائف والمرابطون والموحدون وبنو الأحمر في غرناطة.
- ٥ - المجتمع (الحضارة - الفناء - المرأة).
- ٦ - التشيع والزهد والتصوف.

ومن الواضح أن الدكتور شوقي ضيف يدرك تمام الإدراك أثر البيئة الجغرافية، والبيئة الاجتماعية على تشكيل شخصية الفرد الثقافية وبلورة آرائه الأدبية، إن هذا يتبين لنا تمامًا حين نتنقل من حديثه عن التكوين الجغرافي والبشرى إلى دراسة للثقافة، وهذا هو موضوع الفصل الثاني من كتابه: عصر الدول والإمارات، لقد تضمن هذا الفصل الممتع تحليلًا للحركة العلمية وعلوم الأوائل والفلسفة وعلم الجغرافيا والتاريخ، بالإضافة إلى علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد والتفسير والحديث والفقه والكلام.

إن هذا الفصل والذي اقتربت صفحاته من المائة صفحة، إن دلنا على شيء، فإننا يدلنا على الجهد الكبير الذي قام به الدكتور شوقي ضيف؛ لقد قدم للباحثين دراسة رائدة، دراسة أكاديمية تبدو في أول صفحات الفصل حتى آخر صفحاته، ويقينى أن كل دارس أو مهتم بالأندلس من قريب، أو من بعيد سيجد الطريق أمامه معبداً بعد المجالات التي فتحها لنا رائدنا الكبير في دراسته «لثقافة» في الفصل الثاني من كتابه، صحيح أن حديثه عن بعض الأبعاد الثقافية كان يحتاج من مؤلفنا إلى وقفة أطول، ولكن اتساع مجالات الثقافة بالنسبة لبلاد الأندلس، قد أدى بمؤلفنا إلى أن يشير إلى بعض الأبعاد بنوع من الإيجاز.

وبين لنا الدكتور شوقي ضيف من خلال حديثه عن علوم الأوائل، دور العرب في هذا المجال، إنه يقول معتمداً في ذلك على مصادر دقيقة: لم يكن في أسبانيا قبل فتح العرب لها شيء واضح من علوم الأوائل في الرياضيات وغير الرياضيات، ويبدو أن العرب أخذوا يجلبون أطرافاً منها منذ أواخر القرن الثاني الهجرى مما ترجمه بغداد عن اليونانية وغيرها. (ص ٧٢).

وهذا القول من جانب الدكتور شوقي ضيف يعد صحيحاً إلى حد كبير، وخاصة إذا وضعنا في اعتبارنا ازدهار حركة الترجمة في المشرق العربى أيام العباسيين بصفة خاصة، صحيح أن أول

نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة أيام خالد بن يزيد بن معاوية، حين أمر بترجمة كتب الكيمياء من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية، ولكن النقل المنظم والمزدهر لم يحدث إلا أيام العباسيين، وعن المشرق انتقلت الثقافة، ومنها علوم الأوائل إلى بلاد الأندلس.

وفي حديث الدكتور شوقي ضيف عن الفلسفة في بلاد الأندلس، يبين لنا مدى اهتمام تلك البلاد بالفلسفة والفلاسفة، وإذا كان مؤلفنا الفاضل يتحدث عن محمد بن عبدالله بن مسرة وأبي الصلت أمية بن عبدالعزيز الداني السيد البطلبوسى، فإنه قد أدرك أن هؤلاء لا يعتبرون فلاسفة بالمعنى الدقيق، إذ أن أول فيلسوف أندلسي بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف هو ابن باجه (ص ٨٤).

وهذا القول من جانب الدكتور شوقي ضيف يعد صادقاً تماماً، إذ أن ابن باجه وابن طفيل وابن رشد هم فلاسفة الأندلس، وقد رجح الدكتور شوقي ضيف في حديثه عن مجموعة المفكرين الذين نجد لديهم اهتمامات فلسفية كإبن مسرة، وفي حديثه عن فلاسفة الأندلس، إلى عشرات المصادر والمراجع مما يدلنا على عمق ثقافته وإحاطته التامة بكل جوانب الموضوع الذى يتصدى للكتابة فيه.

لقد رجع إلى عشرات المصادر والمراجع القديمة منها والحديثة، وقد تفضل مشكوراً بالإشارة إلى ما كتبه عن ابن طفيل في كتابي الميثافيزيقا في فلسفة ابن طفيل، وما كتبه عن ابن رشد آخر فلاسفة العرب في كتابي: «النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد»، والمنهج النقدي في فلسفة ابن رشد، ألم أقل لكم أيها القراء الأعزاء، إن الدكتور شوقي ضيف لا يكل ولا يمل. إنه يتابع متابعة تامة كل ما يصدر من كتابات، لا يكتب عن موضوع إلا بعد الرجوع إلى أكثر ما كتب عنه، إنه يقدم لنا في حديثه عن كل شخصية من الشخصيات العديد من المعلومات التي تدلنا على عمق ثقافته الأدبية والفلسفية، إنه على سبيل المثال يتحدث عن ابن مسرة فيقول: يبدو أنه اعتنق مبكراً بعض الآراء الفلسفية والاعتزالية مما جعل بعض الفقهاء يتهمه في عقيدته، وكأنما خشى على نفسه فرحل في سنة ٢٩٩ هـ إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، واختلف في رحلته إلى حلقات المتكلمين ومجالس المتفلسفة والمتصوفة، وعاد إلى موطنه، فاعتزل في ضيعة له بقرية من قرى قرطبة، واجتذب إليه كثيرين عاشوا معه في عزلته وأمنوا بما كان يردده من آراء تتصل بالاعتزال والفلسفة والتصوف. (ص ٨٢).

وفي حديثه عن ابن باجه، يشير إلى هذا الفيلسوف والذي يعد أول فلاسفة الأندلس، قد انحدر من أسرة في سرقسطة شمالي الأندلس كانت تحترف الصياغة... ويبدو أنه أكب مبكراً على دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل كما أكب على علم الألحان والغناء.. وكان شاعراً مبدعاً كما كان ناثرًا بليغاً (ص ٨٤).

ويشير الدكتور شوقي ضيف في حديثه عن ابن باجه، والذي يعد أول فلاسفة المدرسة العقلية الأندلسية، إلى مدينته الفاضلة من خلال كتابه الممتاز، «تدير المتوحد» لقد تخيل في هذا الكتاب مدينة فاضلة مثالية لا يحتاج أهلها إلى طوائف الأطباء الثلاث: لا أطباء البدن لأن أهلها لا يرتكبون أى رذيلة تسبب لهم المرض، ولا أطباء العدالة لأن أهلها متحابون لا يقع بينهم ما يحتاجون معه إلى قضاة وقضاء، ولا أطباء النفوس لأن أهلها كاملون، ويفيض في بيان الصور الروحية والعقلية، وأن غاية المتدبر اتحاد عقله بالعقل العلوى الفعال حتى يبلغ مرتبة المعرفة العقلية الحقيقية. (ص ٨٥).

وكما يتحدثنا الدكتور شوقي ضيف عن ابن باجه، فإنه يعرض علينا بعض جوانب فلسفة ابن طفيل وفلسفة ابن رشد، ويشير إلى أثر فلسفة ابن رشد قائلاً: وظلت فلسفة ابن رشد وتعاليمه وأفكاره تدرس في الغرب منذ القرن الرابع عشر، وعلى الرغم من أن مجمع لا تران البابوى قرر سنة ١٥٠٢ لعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد ظل له أنصار كثيرون، وظل يدرس في الجامعات الغربية حتى العصر الحديث، وما لاريب فيه أنه كان لفلسفته وأفكاره أثر بعيد في قيام حركة التحرر والإصلاح الدينى في النهضة الأوربية (ص ٨٨).

ومن الواضح أن الدكتور شوقي ضيف قد وفق تمام التوفيق في عرض آراء المفكرين والأدباء والفلاسفة، وإن كنا نختلف معه حول بعض الآراء الجزئية، وخاصة فيما يتعلق بنسبته إلى ابن رشد، القول يقدم المادة وحدوثها معاً (ص ٨٨)، إذ أن ابن رشد يقول بقدوم أى أزلية المادة وهو صريح في ذلك تمام الصراحة.

أما الفصل الثالث الذى خصصه المؤلف للحديث عن نشاط الشعر والشعراء، فقد جاء آية في العمق والدقة والتحليل البارع، وذلك كعهدنا دائماً في مؤلفنا الرائد، الدكتور شوقي ضيف، أنه سيتحدث عن شعراء الموشحات، وشعراء المديح وشعراء الفخر والهجاء، وعن الشعر التعليمى.

والقارئ لهذا الفصل يدرك تمام الإدراك الجهد الكبير الذى قام به الدكتور شوقي ضيف، إن هذا الفصل وحده يحتاج إلى سنوات وسنوات طوال، وإذا كنا نجد نوعاً من الإيجاز في حديث مؤلفنا عن بعض الشعراء، إلا أن هذا لا يقلل من أهمية هذا الفصل، لقد كان الإيجاز ضرورياً إلى حد كبير، وخاصة إذا وضعنا في اعتبارنا اتساع نطاق الفصل الثالث، وأنواع الفنون عند الشعراء من أمثال ابن عبد ربه وابن دراج القسطلى، وابن الحداد القيسى وابن زمرك وسعيد بن جودى السعدى، وعبد الملك بن هذيل ويحىى الغزال وحازم القرطاجنى، لقد صنف الدكتور شوقي ضيف أنواع الشعراء تصنيفاً آية في الدقة، وميز لنا بين كل نوع والنوع الآخر من الشعراء، وربط بين الأنواع التى عرض لها.

وإذا كان الدكتور شوقي ضيف قد تحدث في الفصل الثالث عن نشاط الشعر والشعراء، فإنه ينتقل بنا إلى الحديث عن طوائف من الشعراء، شعراء الغزل والطبيعة والرثاء والزهد والمدائح النبوية، وهذا هو موضوع الفصل الرابع في كتابه، وقد جاء هذا الفصل يصفحاته التي جاوزت بكثير المائة صفحة، آية في الدقة والوضوح والدراسة الأكاديمية ذات المستوى الرفيع والأصيل، إن هذا الفصل كسائر الفصول التي تضمنها الكتاب يكشف عن عمق ثقافة المؤلف، إن مؤلفنا الدكتور شوقي ضيف وقد اعتمد على أهم وأدق المصادر والمراجع، يمضى من دراسة مجال إلى دراسة مجال آخر من المجالات العديدة التي تدخل في إطار هذا الفصل، وأقول إن المهتم بتاريخنا الأدبي يجد العديد من الآفاق الجديدة والحديثة والتي من الصعب أن يجدها في مؤلفات أخرى، إن الدكتور شوقي ضيف يكشف من خلال هذا الفصل عن عوالم جديدة وذلك في ثقة ويقين، وواثق الخطوة يمضى ملكاً.

إنه يقول في السطور الأولى من هذا الفصل عن شعر الغزل: لا نبالغ إذا قلنا إن الغزل أهم موضوع شغل شعراء العرب في جميع عصورهم وأقاليمهم، وقد ظلوا يصورون فيه عاطفة الحب الإنساني الخالدة، ويضيفون فيه من الأحاسس والخواطر ما يملأ مجلدات في كل عصر على حدة، بل أيضاً في كل إقليم. ودائماً الشاعر موزع بين وصال ولقاء وبين وداع وفراق، تارة هانيء بحبه وتارة شقي محروم يشكو الهجران، ويتمنى لمحة خاطفة ولو من بعيد، حتى إذا أقبلت عليه صاحبه أحسَّ بفرحة لا تماثلها فرحة، فإذا انصرفت عنه، أظلمت الدنيا في عينيه، واحتمل ما لا يطاق من الآلام والعذاب، ومضى يئن بالشكوى ويتضرع ويستعطف. (ص ٢٥٦).

ولا يخفى علينا أن الدكتور شوقي ضيف حين يقول هذا القول إنما يكون معتمداً على دراسة الأدب في كل عصوره، إنه يتحدث عن الغزل ليس في عصر دون عصر، وليس في إقليم أو بلدة دون إقليم أو بلدة أخرى، بل إنه يربط بين كافة العصور وكافة البلدان، وهذا يدلنا على ثقافته الواسعة الشاملة ليس في مجال الأدب فحسب، بل في مجال الدراسات النفسية أيضاً إنه يصف وصفاً دقيقاً حال المحب، وهذا يذكرنا بما فعله الدكتور يوسف مراد في كتابه مبادئ علم النفس العام، حين اتخذ من القصص الأدبية ومن بينها قصة سارة، مادة لدراساته النفسية في بعض مجالاتها، أي ربط بين الجوانب النفسية والجوانب الأدبية.

أما الفصل الخامس، فقد خصه الدكتور شوقي ضيف للحديث عن النثر وكتابه، لقد تحدث عن أصحاب الرسائل الديوانية والرسائل الشخصية والرسائل الأدبية، كما حلل تحليلياً دقيقاً العديد من الأعمال النثرية ومن بينها على سبيل المثال كتاب طوق الحمامة لابن حزم، والذخيرة لابن بسام وقصة حى بن يقظان لابن طفيل الفيلسوف والأديب الأندلسي.

وهذا الفصل كبقية الفصول التي تضمنها كتاب الدكتور شوقي ضيف، به حشد كبير جداً

من المعلومات التي لا غنى عنها لدارسى الأدب أو الفكر العربي من قريب أو من بعيد، لقد رجع إلى مئات المصادر والمراجع التي تعد هامة غاية الأهمية، ومن النادر أن نجد صفحة من صفحات هذا الفصل والذي تجاوزت المائة والخمسين صفحة، إلا ويذكر لنا الدكتور شوقي ضيف العديد من المراجع الهامة، إن هذا يدلنا على أمانته العلمية وموضوعيته في البحث، لقد أضاف إلى البعد الموضوعي بعدًا ذاتيًا نقدياً، وهذا يدلنا على شخصيته البارزة في البحث، بالإضافة إلى أن هذا الفصل عن طريق المنهج الدقيق الذي التزم به رائدنا الدكتور شوقي ضيف، يمثل وحدة عضوية ليس في حد ذاته فقط، بل مع سائر فصول الكتاب، فإذا ذكر ابن مسرة أثناء حديثه عن الرسائل الديوانية (ص ٣٩٣) فإنه يربط ربطاً وثيقاً بين ما يقوله عن ابن مسرة في هذا المجال، وبين ما سبق أن ذكره عنه، وذلك على النحو الذي سبق أن أشرنا إليه، وإذا ذكر ابن طفيل وقصته حتى بن يقظان (ص ٥١٢) فإنه يفعل نفس الشيء، وهذا يدلنا على أن كتاب الدكتور شوقي ضيف ليس مجموعة من الفصول المتناثرة التي نجدها عند أشباه الدارسين وأشباه أساتذة الأدب، بل إنه على العكس من ذلك تماماً، يمثل كما قلنا وحدة عضوية متماسكة، إنه لا يكتب سطرًا من موضوع في مئات الموضوعات التي عرض لها في هذا الفصل، إلا بعد التأمل الدقيق والتحليل الرائع والربط بين كل مجال والمجالات الأخرى، إنه يميز تمييزًا دقيقًا بين الرسائل الديوانية، والرسائل النبوية والمواعظ، والأعمال النثرية، والمقامات والرحلات... إلى آخر المجالات التي يزخر بها الفصل الخامس والأخير من فصول كتابه.

والواقع أن هذا الكتاب عصر الدول والإمارات (الأندلس) للدكتور شوقي ضيف، وعلى الرغم مما أشرنا إليه في بعض الملاحظات النقدية من جانبنا، يعد سياحة أدبية وفكرية كبرى، إنه يعبر عن سموخ أدبي وثقافي وفكري قل أن نجد له نظيراً، وإذا كنا نفخر بكتاب تاريخ الفكر الأندلسي لبلنثيا، فإن من واجبتنا أيضاً أن نفخر بكتاب الدكتور شوقي ضيف، إننا في هذا الكتاب نجد أنفسنا أمام مائدة فكرية كبرى، مائدة لا يستطيع أن يقدمها إلا رائدنا العملاق الدكتور شوقي ضيف، ألم أقل لك أيها القارئ العزيز إن هذا الكتاب يعد في مقدمة الكتب التي صدرت عام ١٩٨٩، إنه موسوعة أدبية ضخمة قدمها لنا الدكتور شوقي ضيف، الأستاذ والرائد بكل ما تحمله كلمة الأستاذية وكلمة الريادة من معان سامية ودلالات عميقة ونبيلة.

ا. د. عاطف العراقي

أستاذ الفلسفة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة القاهرة